السيد

الخير المطبوع:

قدمنا الكلام في فصول الكتاب عن محمد رئيسا، ومحمد صديق، ومحمد زوجان، ومحمد أبا، بعد الكلام على عبقريته في الدعوة، وعبقريته في قيادة الجيوش، وعبقريته في السياسة والإرادة والبلاغة.

وبقى جانب لا تتم بغيره الإحاطة بجوانب النفس الإنسانية في العلاقات بينها وبين سائر النفوس، وهو جانب المعاملة التى تكون بين الرجل ومن هم ممن يملك أمرهم ويقبض على زمامهم ولا يعتصمون منه بعاصم غير عواصم طبعة وخلقه، ونريد بهم الخدم والعبيد والأرقاء، وهى معاملة لها من الدلالة على الأخلاق، ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى، لأنها تأتى من طبائع النفس وعقائدها، ولا تأتى بأمر آمر أو بدعوة داع.

فالصداقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين لا يستطيع أحدهما أن ينساها زمنا طويلا إلا ذكره من صديقه الحافظ لحقوقه، القادر على مقابلة الجفاء بمثله، ولو في طوية نفسه.

والرئاسة قد تخول الرئيس حق السيطرة، وتفرض على المرؤوسين واجب الطاعة، غير أنها قل أن تنطلق بغير وازع من خشية الغضب خشية الانتقاض يحسب له الرئيس كل الحساب، أو بعض الحساب.

والأب يعطف على نبيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم، لما ركب في طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده، وان اختلف الآباء في صفات العطف وفى استحقاقهم لبر الأبناء.

وكذلك الزوج يرفق بزوجته وليس له كل الاختيار في رفقه، لما يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف، ويستغنى بها أحيانا عن القوة والرئاسة..

أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما فى نفس سيده من رحمة وخير، وإنه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر الدين مع عبيده وخدمة الذين لا ينصرهم عليه ناصر فى هذه الدنيا. . بل إنها لرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر الإلهية، فإذا تجاوزتها إلى طواعية فى الخير لم يفرضها الدين ولم يفرضها العرف ولم يطلبها العبد نفسه فتلك هى الرحمة فى أصدق معانيها، وهى أدل الدلالات على لباب الأخلاق.

* * *

ولقد علم القارئ من فصولنا السابقة أننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الإسلامية وتفصيل محاسن الدعوة المحمدية فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول وليس لنا أن نتصدى له بعد من فصلوه وكروا الكتاب فيه. . وإنما بهذه الفصول إلى غرض قدمناه على كل غرض فى موضوعه، وهو بيان البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهى من نواهيه إلا أن الخير المطبوع شىء والخير المأمور شىء آخر، والخير المطبوع هو الذى قصدنا إلى بيانه ما بيناه.

ففى كتبانا عن معاملة محمد للعبيد والخدم لا ننوى أن نفصل أحكام الإسلام وأوامر القرآن فى هذه المعاملة، وإنما تنوى أن نبين مزية محمد على جميع السادة فى هذا الباب، وهى مزية لا توافر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود، ولا للذين يرتفعون إلى ارفع مرتبة تفرضها هذه الأوامر والحدود.

* * *

الإسلام والرق:

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الإشارة بداءة إلى مزية الإسلام بين الأديان الأخرى فى مسألة الرق والاستبعاد، لأن أناسا يخلطون بين اعتراف الإسلام بنوع إلى عمل النبى ﷺ. .

فمن الواجب أن نذكر أولا أد دينا من الأديان الأخرى لم يأمر بإلغاء الرق فى شكل من أشكاله، سواء رق الحرب أو رق النخاسة والبيع والشراء، وإن أناسا من أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه واعتبروه جزاء عادلا للخطايا التى يقترفها المسترقون وجاء بعض أحبار الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية، أنفة لها أن يدنسها لؤم العنصر الذى وسموا به الرقيق.

ويجب أن نذكر بعد هذا أن النظام الاقتصادى القديم فى أساسه كان مرتبطا بالاسترقاق أشد الارتباط. فكان إلغاؤه طفرة واحدة أقرب شىء إلى المستحيلات، ولم يكن أنفع فى علاجه من التدرج خطوة فخطوة والابتداء بتصعيبه وترغيب الناس عنه، وهو ما شرعه الإسلام.

فالإسلام قد بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرى فى الحروب، ثم حسن إطلاقهم وسماه منًّا وعفوا يشكر فاعله عليه: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤].

ثم أجاز للأسير أن يشترى نفسه، وأوجب حريته فى حالات كثيرة يرجع معظمها إلى إرادته هو، إذا استطاع.

والحق الذى لا مراء فيه أن صنيع الإسلام هذا كان أجمل صنيع لقيمه الأرقاء من دين أو شريعة، وأنه إذا كان هناك تمهيد لإلغاء الرق بتة فذلك هو تمهيد الإسلام دون غيره، وهو أقصى ما كان مستطاعا فى نظام العالم القديم: نظام كان عدد الأرقاء فيه يقارب عدد الأحرار، كما جاء فى بعض الإحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية.

وقد نظر فى مسألة الرق عقل من أكبر العقول التى نبغت فى أمة اليونان بل فى الأمم كافة - ونعنى به أرسطو - فأقره وأوجبه لأنه جعله سنة من سنين الفطرة وقيدا لا فكاك منه لطائفة من الناس، خلقت عاجزة عن ولاية أمرها فلا غنى لها عن سيد ولا موئل لها من وال.

معاملة محمد لعبيده:

ولو وقف النبى عن هذا الحد فى معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وامتاز بأمر دينه على كل محسن إلى الأرقاء فى زمانه. إلا أننا نقرر الواقع ولا نتعداه قيد شعرة حين نقول إن كثيرا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرا من المعاملة التى ظفر بها خدم محمد وعبيده. ومن من الآباء يحسن إلى أبنائه خيرا من إحسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة؟

لقد اعتقد زيدا ورآه أهلا للزواج بعقلية من أقرب قريباته إليه وأولاهن بحدبة وتوقيره، وهى التى رآها بعد ذلك أهلا لزواجه بها وحظوتها لدينه. فلم يعطه الحرية وكفى، ولم يعطه المساواة فى العيش وكفى، بل رفعه إلى المنزلة الاجتماعية التى يرتفع إليها السادة، ولا يثبتها شىء كما يثبتها شرف المصاهرة.

ثم حفظ هذا البر الأبوى لأبنه أسامة، فولاه جيش الشام وهو دون العشرين، وفى الجيش طائفة من أكابر الصحابة، فلو كان للنبى ولد فى سنة لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة، ولا ميزه أشرف من هذا التمييز. نعم لم نعد الواقع، ولا تجوزنا فى الوصف، حين قلنا إن الابن لا يتمنى خيرا من معاملة محمد لعبده. فقد عرف زيدا فعلا أن محمدا خير من أب وخير من أسرة كاملة ويرجع غليها وترجع إليه.. فبقى معه ولم يذهب مع أبيه، ولم يبق معه إيثارا لبركة النبوة فإن محمدا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد وآثره على جميع آله. وإنما بقى معه لأنه الإنسان الذى يعرف حتى العبيد أن آصرة الإنسانية عنده أوثق من آصرة الأبوة عند آخرين.

إن حب الوالد لوليده وراثة ألوف الألوف من الأجيال. بل وراثة الحياة فى جميع الأحياء. فإذا بلغ بالضعفاء مبلغ الحب الأبوى من القوة فقد بلغ العليا التى لا متسنم فوقها لراق.

لقد خيرت شريعة الإسلام المحسنين بين المن وإعتاق الأسرى، وبين الفداء بالمال أو المبادلة.. فإيهما اختار المالك فهو إحسان.

أما محمد فقد اختار لمن وزاد عليه فأعتق كل أسير صار إلى حوزته. وزاد العتق تلك الرحمة الأبوية التى شملت كل منتم غليه، ولم يستبح فى غضبه ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتعزيز.. وربما كانت كلماته للخام المخالف أقرب إلى الملاطفة منها إلى العقاب. ومن ذلك قصة الوصيفة التى أرسلها فأبطأت فى الطريق، فما زاد على أن قال لها حين عادت: "لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك!"

ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشىء الكثير.

ولكن محمدا يخشى القصاص إذا استباحه فى معاملة وصيفة تهمل أمره، وهو الذى لا يمهل أمر عند سادة الشرفاء..

وروى أنس أن النبى أرسله فى حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون فى السوق: "وإذا رسول الله ﷺ قد قبض ثيابى من ورائى، فنظرت إليه ﷺ وهو يضحك، فقال: يا أنس!.. اذهب حيث أمرتك!".

كلمة أمر لا يقولها لخادمه إلا وقد ناداه مدللا وقابله ضاحكا كأنه يعتب على قرين وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام.

وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده. فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهداية ويكافئ عليها، ويلبى دعوتهم إذا دعوه إلى طعام، ويوصى بهم قائلا: "هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكفلوهم ما يغلبهم، فإن كفلتموهم فأعينوهم" و"اتقوا الله فى الضعيفين النساء والرقيق".

***

البر بالخدمة:

وربما كان البر بالخدمة فى هذا المقام أكرم وأنفى للهوان من البر بالخدم. فالبر بالخادم عطف عليه أما البر بالخدمة فارتفاع بالخادم إلى مقام السادة حيث لا يأنف من السادة من خدمة أنفسهم بأيدهم، وذلك هو البر بالخدمة كما عيناه، وذلك هو أدب النبى الذى جرى عليه فى بيته وبين أهله وخدمه.

فقد كان يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه أى البعير التى يستقى عليه الماء. فإذا رأى الخدم لهم عملا فى البيت يماثل عمل سيدهم ومالك أمرهم فتلك هى المساواة التى تسمح ضير الخدمة وتجبر كسرها، ولا تقتصر على العطف والرحمة.

ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأنف الأحرار أن يقضوها له شاكرين. فما كان فى رجالات المسلمين كابر ابن كابر إلا كان يتمنى أن يؤدى لنبيه تلك الخدمة التى تطوعت بها نفوس مواليه وأتباعه وهذا ضرب آخر من ضروب البر بالخدمة والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد. فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذى يجلس إلى قدمى أستاذه، حبا لا خنوعا، وتوقيرا لا مذلة، وأدبا على نفسه وليس بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب.

وعلى هذا كان النبى ﷺ يكره أن تقبل يداه مخالفة أن تجرى العادة بهذا وبين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع. قال أبو هريرة رضى الله عنه: "دخلت للسوق مع النبى ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوزان: زن وأرجح، فوثب الوزان إلى يد رسول الله ﷺ يقبلها، فجذب يده وقال: هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، وإنما أنا رجل منكم ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال: صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله".

ولقد يصح أن يقال إن حصة النبى من خدمة نفسه كانت أعظم من

حصة خدمة، وإن تعويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم وإنه جعل الخدمة على سنته ضربا من توزيع الأعمال، أو ضربا من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدبيره وقضاء شئونه.

"إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد".

هذه كلمة السيد بإمامته، السيد بنسبه، السيد بسلطانه، السيد بالتفات القلوب حوله، السيد بسيادته على سره وعلانيته ورأيه وهواه ولو عمت هذه السيادة لبطل الاستعباد وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئا لا غضاضة فيه على صغير ولا خنزوانة فيه لكبير إنما هو تقسيم أعمال، وتعاون بين إخوان، وإن لم يكن تعاونا بين أمثال.

* * *